

تمهيد: تقع تونس في أقصى شمال قارة إفريقيا، حيث تشرف على البحر الأبيض المتوسط من جهة الشمال والشرق، ويحدها من الغرب والجنوب الجزائر، ومن الجنوب الشرقي ليبيا، أمامها جزر صغيرة كجزيرة جربة، وهي تطل على مضيق صقلية. بينما تضاريسها فهي عبارة عن سهل ساحلي طويل بين الشرق والشمال لها صحراء تقسمها مع الجزائر وليبيا، والباقي عبارة عن سهوب وهضاب وجبال، أهمها جبال سلسلة أطلس التلي والذي تتخلله أودية أهمها وادي المجردة.

أما فيما يخص التسمية فقد سماها العرب بهذا الاسم، كما سماها اليونانيون "تونيوتيوم"، وحسب المصادر العربية فكان اسمها ترشيش أو ترشيس، عاصمتها مدينة تونس و من أهم مدنها: القيروان، سوسة، صفاقس، قابس، بترت...، توافد على المنطقة عدة شعوب: الفينيقيين، القرطاجيين (تأسيس مدينة قرطاج)، الرومان، الوندال، البيزنطيين، العرب و العثمانيين، ظهرت بها عدّة دول : دولة الاغالبة، الحفصية...، تعرضت للتحركات الاسبانية.

منذ سنة 1574 أصبحت تونس اىالة عثمانية، حيث مرّ الحكم العثماني بها عبر المراحل التالية: عهد الباشوات (1574-1591)، عهد الدايات (1591-1630)، عهد البايات (1630-1881)، فقد تولى خلال هذين العهدين أسرتين : الاسرة المرادية (1631-1702)، الاسرة الحسينية (1705-1881).

1- مكونات المجتمع التونسي الحديث: لقد توافدت على تونس أصنافا عديدة من العرقيات التي تفاعلت فيما بينها لتصبح نسيجاً متجانساً نذكر منهم:

أ- سكان المدن:

- **الأتراك:** عددهم قليل جدا، حيث تركز معظمهم في عواصم الولايات و المدن الرئيسية، كانوا يتمتعون بكافة الامتيازات.

- **الاعلاج (المماليك):** هم عناصر أوربية مسيحية تواجدوا عن طريق الاسر، تولوا مهامات سامية في الدولة.

- **الكراغلة:** هم المولدون من أبناء أتراك (رياس البحر أو الانكشاريين) و أمهات تونسيات.

- **الحضر:** هم السكان الاصليين العرب، البربر والاشراف، بالإضافة الى الاندلسيين الذين توافدوا بكثرة خلال القرن 17م وكان لمجيئهم الأثر البالغ في تغطية النقص السكاني.

- **الدخلاء:** تتكون هذه الفئة من الجرابة و هم السكان الوافدين الى مدينة تونس من جزيرة جربة، بالإضافة الى العبيد (الشواشين) دخلوا الى المدينة عن طريق القوافل الصحراوية القادمة من بلاد السودان.

- **أهل الذمة:** توافدت جماعات يهودية الى المنطقة عبر هجرات متفرقة، حيث احتكروا المجال التجاري وأصبحت لهذه الفئة نفوذ، بالإضافة الى الاسرى المسحيين، القناصل، التجار، الرحالة...

ب- سكان الأرياف:

- قبائل المخزن: كانت مهامها ضمان الاستقرار وجمع الضرائب.

- قبائل الرعية: تتألف غالبيتها من سكان الريف الذين يقومون بممارسة الزراعة.

- القبائل المتحالفة: يطلق عليها القبائل المتعاونة، وهي تشكل تجمعات قبلية كبيرة تعرف بالاحلاف.

- القبائل المستقلة: وهي المقيمة في المناطق النائية (الجبليّة والأقاليم الصحراوية)، كانت معادية للسلطة المركزية.

2- مظاهر الحياة الاجتماعية بتونس:

- اللباس: كان الاعيان يلبسون بلوزة و فوقها القشايية مصنوعة من الصوف، ويضعون فوق الرأس الشاشية التي يعلوها

الززار و هو الجزء المتصل بالقشايية، أما النساء فكن يلبسن ملايتين واحدة من الامام و الثانية من الخلف، ولا تخطان

ببعضهما البعض، ولكن تشبكان على الكتفين بمشكين، و يلبسن عليهما حزام أحمر يربط بحلقة من نحاس، و يغطين

رؤوسهن بعمامة يضعن عليها لثاما يغطي الرأس و الكتفين، وكن يجلين أذانهن بحلقات كبيرة من الفضة تشبك بالعمائم، كما

كان يلبس الحايك (الفسفاري) أثناء خروجهن من المنزل (الطبقة الوسطى)، وهو من جهاز العروس.

- الغذاء: من أشهر المأكولات التي تميز بها المجتمع التونسي هو وجبة "الكسكس" كباقي المجتمعات المغاربية، ومن

عادتهم طبخ طعام يسمى "الحلام" وهو عبارة عن حساء، ويصنعون "المجامع"، ويقدد لحم الاضاحي....، بالإضافة الى

البقوليات...

- الاحتفالات: تنوعت الاحتفالات الدينية منها: عيد الفطر (يدعى بعيد السكر أو بيرم)، عيد الأضحى (يدعى ب

قربان بيرامي)، المولد النبوي الشريف، عاشوراء، رمضان، ليلة القدر...، وكذلك الاحتفالات الاجتماعية المتمثلة في

الزواج، الختان، العقيقة...، حيث كانت تزين الشوارع و تصنع الحلويات التقليدية و تبادل الزيارات و تكثر الصدقات....

3- الحالة الصحية:

- الامراض و الأوبئة: أثرت عدّة عوامل في الواقع الصحي بتونس في العصر الحديث، فقد عرفت فترات متعاقبة من

الانكماش الديمغرافي الذي صاحبه انتشار الامراض و الأوبئة، مما كان له تأثير كبير على النمو السكاني، فظهرت موجة

من الأوبئة خلال السنوات التالية: (1604- 1606)، 1621، (1657- 1663)، (1675- 1680)، (1688-

1692)، 1696، (1701- 1706)، (1777-1779)، (1784- 1785)، (1790- 1802)، 1816،

1822، فتعددت الامراض كالحمي، التيفوئيد، الشلل، الصقيع، وأشهر الأوبئة "الطاعون" بأنواعه.

نظرا لنقص الادوية و التأخر في المجال العلمي (الطب)، لجأ العامة الى التداوي بالأعشاب و ذلك بالاعتماد على شرب

المياه المباركة التي قرأ عليها القرآن، واستخدام بعض الثمار كالتين، القرفة، زيت الزيتون، البصل و الثوم....، باستثناء

بعض المساهمات للحكام (حسين بن علي و حمودة باشا) بإقامة العديد من المستشفيات من اجل الوقاية من هذه الامراض

و الأوبئة الفتاكة التي أدت الى تراجع عدد السكان بشكل كبير.

- **المجاعات و الكوارث الطبيعية:** بدأت المجاعات مع منتصف القرن 17م وازدادت حدتها مع نهاية القرن 18م و بداية القرن 19م، وعم القحط خلال السنوات التالية: 1662، (1671 – 1678)، (1700 – 1703)، (1763- 1785)، 1796، (1803 – 1805)، بالإضافة الى موجات من الزلازل العنيفة التي تسببت في خسائر مادية و بشرية، و ظاهري الجفاف و الجراد التي أدت الى قلة المحاصيل الزراعية و ارتفاع الأسعار، فارتفع عدد الموتى، حيث كان عدد سكان تونس في هذه الفترة يتراوح ما بين 1200000 و 1500000 نسمة، سببت تلك الموجات من الأوبئة و المجاعات في تراجع عدد السكان و انكماش الوضع الديمغرافي خاصة في المدن ، حيث على سبيل المثال انخفض عدد سكان مدينة تونس من 1000000 ن (1756م) ليصل الى 80000 ن (1860م).

4- الاسرة و المرأة: تعتبر الاسرة الوعاء الحضاري و الثقافي للمجتمع التونسي، و كان للمرأة مكانة فيه و لعبت دورا كبيرا في تربية الأجيال و مساندة الرجل في ازدهار هذا المجتمع ، حيث كان المجتمع التونسي في الغالب يعتمد على النظام القبلي و هذه القبائل تربطها صلات القرابة و الصداقة، وتشكل الجماعة من أربع الى خمس أسر، و هذه الجماعات تكون القبيلة التي يترأسها كبيرهم و يسمى بالشيخ.

5- الواقع الديني و الثقافي: كان للزوايا دور تربوي تعليمي و ذلك من خلال تعليم القراءة و الكتابة، و تحفيظ القرآن الكريم، حيث أعتبرت مسجد ، مدرسة و معهد للتعليم القرآني و العلوم الشرعية ، و تجلى الدور الديني في الحفاظ على العقيدة الإسلامية (المذهب المالكي) ، كذلك الاجتماعي الذي تمثل في إيواء و اطعام الفقراء، الطلبة و عابري السبيل...، حيث أصبحت تحظى بشعبية و أضحت لها تأثير كبيرا و نوع من النفوذ.

- توافد الاندلسيون بكثرة على المنطقة خلال القرن 17م فساهموا في تغطية النقص السكاني في تونس، حيث ساهمت الجاليات الاندلسية في انتعاش الاقتصاد و الجانب العمراني، مما انعكس إيجابيا على المجتمع التونسي بالإضافة الى انتشار بعض العادات و التقاليد التي أدت الى تحضر أغلب المدن.

في الأخير نقول رغم التأثيرات العثمانية و الاندلسية على المجتمع التونسي الا انه بقي متماسك بعاداته و تقاليده و عقيدته، أما بالنسبة لطبيعة العلاقة بين السكان و السلطة الحاكمة كانت متفاوتة حيث ظهرت عدة ثورات ضد السلطة مثل (ثورة علي بن غدام سنة 1864) نظرا لفرض الضرائب المجحفة على العامة من السكان، في المقابل حظيت الفئة المتعاونة مع السلطة بالامتيازات مما انعكس سلبا على المستوى المعيشي و الواقع الديمغرافي.